اللّٰه
يـرى الخـير
ونحن لا نـراه
إبراهيم إسماعيل الصعب

. اللهُ يَرَى الخَيْرَ وَنَحْنُ لَا نَرَاهُ.

الشَّمْسُ تُرْسِلُ آخِرَ خَيْطٍ لَهَا مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ الوَعْلِ، وَثَلْجٌ يَمْلأُ المَكَانَ، وَنَسِيمٌ يَحْمِلُ رِيحاً طَيِّبَةً. سَارَ نَحْوَ تِلْكَ الرِّيحِ وَالظَّلَامُ قَدْ أَسْدَلَ السِّتَارَ عَنْ وَجْهِ النُّورِ، اتَّجَهَ جَنُوباً فَوَجَدَ شَيْخاً يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ كِتَاباً هُوَ مَصْدَرُ تِلْكَ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ لَكِنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَنْطِقْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، اسْتَمَرَّ فِي سَعْيِهِ لِيَجِدَ شَيْطَانَةً تَقْطِفُ زَهْرَةً بِسِكِّينٍ قَدْ تَلَطَّخَتْ بِالدِّمَاءِ وَالثُّعْبَانُ خَلْفَهَا، صَرَخَ فَزَعاً لِيَجِدَ نَفْسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ يُحَدِّقُ بِوَجْهِ زَوْجَتِهِ، لَكِنَّ رُعَاشَ قَدَمَيْهِ قَدْ أَيْقَظَهَا هِيَ الأُخْرَى، فَتَحَتْ رُمُوشَهَا لِتَكْشِفَ عَنْ عَيْنَيْهَا السَّوْدَاوَيْنِ اللَّتَيْنِ طَالَمَا كَانَتَا مَصْدَرَ قُوَّتِهِ، مَدَّتْ يَدَهَا وَوَضَعَتْهَا عَلَى جَبِينِهِ الَّذِي قَدْ تَصَفَّدَ عَرَقاً. يَا مَرْيَمُ العَذْرَاءُ أَعِينِينَا. مَا الَّذِي رَأَيْتَهُ يَا مِيخَائِيلُ؟ لَمْ يُجِبْ بَلِ انْسَلَّ مِنْ فِرَاشِهِ وَاتَّجَهَ نَحْوَ الخَارِجِ، كَانَ الصَّمْتُ مُطْبِقاً وَلَا يَشُقُّهُ سِوَى صَوْتِ الأَنِينِ، أَنِينِ وَالِدِهِ الَّذِي يَكْتُمُه فِي النَّهَارِ لِيَنْفَجِرَ فِي اللَّيْلِ، ذَلِكَ الرَّجُلُ العَنِيدُ الَّذِي قَدْ تَجَاوَزَ السَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ، كَيْفَ لَهُ أَنْ يُظْهِرَ آلَامَهُ وَهُوَ الَّذِي أَوْجَعَ الوَعْلَ الأَبْيَضَ بِرُمْحِهِ مِرَاراً وَتَكْرَاراً عَلَى مَرِّ السِّنِينَ الفَائِتَةِ. قَلْبُ مِيخَائِيلَ يَعْتَصِرُ أَلَماً عَلَى وَالِدِهِ الشَّيْخِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ كَيْ لَا يَجْرَحَ كَرَامَةَ وَالِدِهِ فَهُوَ عَنِيدٌ جِدّاً حَتَّى السُّؤَالُ عَنْ حَالِهِ يُعْتَبَرُ إِهَانَةً لَهُ، يَا إِلَهِي هَلْ جَبَرُوتُ وَالِدِي ذَهَبَ؟! أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ سِيجَارَةً فَأَشْعَلَهَا وَعَبَّ مِنْهَا نَفَساً عَمِيقاً أما َصَوْتُ الأَنِينِ قَدْ خَفَتَ وَلَمْ يَعُدْ لَهُ وُجُودٌ. هَلْ هُوَ حُلْمٌ عَابِرٌ أَمْ نَذِيرُ شُؤْمٍ؟ فَكَّرَ فِي نَفْسِهِ لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ اللهَ لَا يَخْتَارُ لِلْعَبْدِ إِلَّا الخَيْرَ، عَادَ إِلَى فِرَاشِهِ بَعْدَمَا اسْتَقَرَّتْ نَفْسُهُ وَلَمْ يَكَدْ يُطْبِقُ جَفْنَيْهِ حَتَّى عَادَ الأَنِينُ أَقْوَى وَأَكْثَرَ حِدَّةً، تَيَبَّسَ عَلَى سَرِيرِهِ وَلَمْ يَدْرِ مَاذَا يَصْنَعُ، نَظَرَ لِزَوْجَتِهِ وَوَكَزَهَا وَبِصَوْتٍ هَادِئٍ:
صُوفِيَا.. يَا صُوفِيَا إِنَّ أَبِي لَمْ يَعُدْ يَحْتَمِلُ أَلَمَهُ اذْهَبِي إِلَيْهِ وَانْظُرِي

بِحَالِهِ. ذَهَبَتْ صُوفِيَا وَعَادَتْ مُسْرِعَةً وَقَالَتْ لَهُ إِنَّ وَالِدَكَ يَحْتَضِرُ وَطَلَبَ مِنِّي أَنْ آتِيَ إِلَيْهِ بِكَ، نَهَضَ مِنَ الفِرَاشِ فَزِعاً وَذَهَبَ إِلَيْهِ فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَأَمْسَكَ يَدَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّثْ، نَظَرَ الوَالِدُ لِوَجْهِ ابْنِهِ فَابْتَسَمَ وَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ اجْلِسْ فَلَعَلِّي لَا أُصْبِحُ.. اتَّسَعَتْ حَدَقَةُ عَيْنِ مِيخَائِيلَ وَازْدَادَتْ ضَرَبَاتُ قَلْبِهِ وَوَالِدُهُ لَيْسَ بِخَائِفٍ بَلْ يَبْتَسِمُ. يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ عَنِيدٍ يَا وَالِدِي! قَالَ وَالِدُهُ: كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ أَحْمِلَكَ بَيْنَ ذِرَاعَيَّ لَكِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ، كُنْتُ رَجُلاً قَوِيّاً لَا أَهَابُ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَ لِأَنَّنِي قَوِيٌّ بَلْ لِأَنَّنِي مُؤْمِنٌ أَنَّ اللهَ مَعَنَا، هَذَا مَا آمَنْتُ بِهِ. سَأَلَهُ مِيخَائِيلُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الثِّقَةُ؟ قَالَ وَالِدُهُ: سَأُحَدِّثُكَ عَنْ قِصَّةٍ حَدَثَتْ مَعِي وَغَيَّرَتْ حَيَاتِي وَلَمْ أَرْوِهَا لِأَحَدٍ. لَقَدْ كُنْتُ يَا بُنَيَّ فِي رِحْلَةِ صَيْدٍ وَانْتَهَى بِي المَطَافُ ضَائِعاً بَيْنَ الجِبَالِ وَالطَّعَامُ قَدْ نَفِدَ مِنِّي وَكُنْتُ قَدْ أَوْشَكْتُ عَلَى الهَلَاكِ حَتَّى شَاهَدْتُ دُخَاناً يَتَصَاعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، اقْتَرَبْتُ مِنْ مَصْدَرِ الدُّخَانِ فَوَجَدْتُ رَجُلاً قَوِيّاً ضَخْمَ الجُثَّةِ مُشْرِقَ الوَجْهِ كَثِيفَ اللِّحْيَةِ فَأَوْجَسْتُ مِنْهُ خِيفَةً لَكِنَّهُ قَالَ لِي اقْتَرِبْ، لَمْ أَكُنْ أَوَدُّ الاقْتِرَابَ حِينَهَا لَكِنَّ تَعَبَ قَدَمَيَّ وَجُوعَ مَعِدَتِي سَاقَانِي إِلَيْهِ، أَخْرَجَ لِي مِنْ صُرَّةٍ كَانَ يَحْمِلُهَا قِطْعَةً مِنَ الخُبْزِ وَشَرْبَةَ مَاءٍ، تَنَاوَلْتُ قِطْعَةَ الخُبْزِ وَجَلَسْتُ بِجِوَارِهِ بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِي شَرّاً، سَأَلَنِي عَنْ حَالِي فَأَخْبَرْتُهُ عَنْ قِصَّةِ ضَيَاعِي وَنَفَادِ طَعَامِي لَكِنَّهُ لَمْ يُجِبْ إِلَّا بِكَلِمَةِ "ثِقْ بِاللهِ" وَمَشَى مُبْتَعِداً، كَانَتْ كَلِمَةً قَوِيَّةً عَلَى نَفْسِي وَحَيَاتِي وَوَثِقْتُ بِهَا فَهَدَانِي اللهُ إِلَى طَرِيقِ العَوْدَةِ وَوَفَّقَنِي بِصَيْدٍ وَعْلٍ كَبِيرٍ، فِيمَا بَعْدُ عَلِمْتُ أَنَّهُ مُطَارَدٌ مِنْ قِبَلِ الحُكُومَةِ. سَأَلَ وَالِدَهُ عَنْ سَبَبِ مُطَارَدَةِ الحُكُومَةِ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَنْقَذَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يُجِبْ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَغَطَّ بِنَوْمٍ عَمِيقٍ، لَحَظَاتٌ مِنَ الصَّمْتِ المُطْبِقِ قَدْ خَيَّمَتْ عَلَى المَكَانِ وَيَدُ وَالِدِهِ أَصَابَهَا بَرْدٌ عَمِيقٌ وَكَأَنَّهُ بَرْدٌ قَادِمٌ مِنْ جَبَلِ الوَعْلِ الَّذِي أَلِفَهُ وَالِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَلِفَ زَوْجَتَهُ، لَيْسَ بِبَعِيدٍ وَمِنَ الغُرْفَةِ المُجَاوِرَةِ انْفَجَرَ ابْنُه الصَّغِيرُ بِالبُكَاءِ، بُكَاءٌ عَمِيقٌ يَخْرُجُ مِنْ جَوْفٍ

مُحْتَرِقٍ وَكَأَنَّ جَمْراً قَدْ صُبَّ فِيهِ، أَعَادَ يَدَ وَالِدِهِ إِلَى الفِرَاشِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ المُصِيبَةَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِ وَالسِّرَّ الَّذِي أُخْفِيَ عَنْهُ، انْتَفَضَ مِنْ عَلَى كُرْسِيِّهِ مُسْرِعاً نَحْوَ غُرْفَةِ ابْنِهِ لَعَلَّهُ يُسْكِتُهُ لَكِنَّ الوَلَدَ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ البُكَاءِ، فَقَدِ اشْتَمَّ رَائِحَةَ المَوْتِ، تِلْكَ الرَّائِحَةَ الخَفِيَّةَ الَّتِي لَا يَقْدِرُ مَنْ تَدَنَّسَ بِذُنُوبِ الدُّنْيَا عَلَى اشْتِمَامِهَا، كَيْفَ لِهَذَا الصَّغِيرِ أَلَّا يَبْكِيَ وَقَدْ فَقَدَ لِتَوِّهِ الكَثِيرَ مِنَ الهَدْهَدَاتِ وَقِصَصِ الوُعُولِ.

صُوفِيَا هِيَ الأُخْرَى أَتَتْ لِغُرْفَةِ الصَّغِيرِ وَرَغْمَ كُلِّ جُهُودِهَا حَتَّى يَهْدَأَ لَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي البُكَاءِ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى غُرْفَةِ جَدِّهِ الَّذِي لَمْ يَبْرُدْ بَعْدُ، لَكِنَّ الجَدَّ لَمْ يَتَحَرَّكْ، هَدَأَ الصَّغِيرُ بَعْدَ أَنْ فَرَكَ وَجْهَهُ بِلِحْيَةِ جَدِّهِ فَأَصَابَهَا شَيْءٌ مِنْ دُمُوعِهِ وَلُعَابِهِ الدَّبِقِ، وَقَفَ بِبَابِ الغُرْفَةِ وَأَسْنَدَ كَتِفَهُ عَلَى الجِدَارِ البَارِدِ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ هَذَا المَشْهَدَ الَّذِي لَنْ يَتَكَرَّرَ أَبَداً، مَرَّتْ بِضْعُ ثَوَانٍ أَرَادَ بَعْدَهَا أَنْ يَأْخُذَ الصَّغِيرَ لِفِرَاشِهِ، حَاوَلَ التَّحَرُّكَ لَكِنَّهُ قَدْ تَسَمَّرَ بِمَكَانِهِ وَقَلْبُهُ قَدِ اتَّشَحَ ظَلَاماً يُعَادِلُ ظَلَامَ اللَّيْلِ لِأَلْفِ يَوْمٍ، نَعَمْ هَذَا هُوَ قَلْبُ الوَلَدِ البَارِّ بِوَالِدَيْهِ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُهُ الحَوَاسُّ. قَدْ أَدْرَكَ مَوْتَ وَالِدِهِ وَخَرَّ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، هَرْوَلَتْ صُوفِيَا مُسْرِعَةً نَحْوَ زَوْجِهَا المِسْكِينِ وَجَلَسَتْ بِجِوَارِ رَأْسِهِ المُتَدَلِّي عَلَى عَتَبَةِ البَابِ وَقَدِ اسْتَحَالَتْ عَيْنُهَا غَيْمَةً سَوْدَاءَ سَخِيَّةً بِالمَطَرِ المَالِحِ عَلَى وَجْهِهِ المُصْفَرِّ الَّذِي أَزَالَ الغَشَاوَةَ عَنْ عَيْنَيْهِ، أَسْنَدَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ زَوْجَتِهِ وَسَارَ بِخُطَوَاتٍ مُثْقَلَةٍ لِفِرَاشِ أَبِيهِ الَّذِي قَدْ رَحَلَ وَتَرَكَ وَرَاءَهُ فَرَاغاً وَكَسْراً لَا يُمْكِنُ جَبْرُهُ، أَغْلَقَ عَيْنَيْ وَالِدِهِ وَزَفَرَ زَفْرَةً مُتَقَطِّعَةً مُجْهِشَةً بِالبُكَاءِ الَّذِي يَكَادُ يَقْتُلُهُ، يَا لِهَذَا الزَّمَنِ الصَّعْبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ هُوَ لَا يَتَوَقَّفُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَنْ يَمْنَعَ الشَّمْسَ مِنَ الشُّرُوقِ وَلَنْ يَمْنَعَ الدِّيَكَةَ مِنَ الصِّيَاحِ مُبَشِّرَةً بِفَجْرٍ جَدِيدٍ، أَجَلْ إِنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ وَتَمُدُّ يَدَهَا الفِضِّيَّةَ عَلَى وَجْهِ العَجُوزِ المَيِّتِ الَّذِي تَذَوَّقَ المَوْتَ كَأَنَّهُ يَتَذَوَّقُ قِطْعَةَ ثَلْجٍ بَارِدَةٍ مِنْ ثَلْجِ جَبَلِهِ الَّذِي أَلِفَهُ /جَبَلِ الوَعْلِ/ هَدَأَ مِيخَائِيلُ وَاسْتَرْجَعَ بَعْضَ قُوَّتِهِ وَأَرَادَ أَنْ

يَذْهَبَ إِلَى الكَنِيسَةِ وَيُعْلِمَ القَسِّيسَ بِمَوْتِ وَالِدِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ وَكَأَنَّ قُوَّةً غَرِيبَةً تَمْنَعُهُ مِنَ الأَمْرِ وَكُلَّمَا حَاوَلَ النُّهُوضَ أَفْشَلَتْهُ قَدَمَاهُ، ارْتَعَدَ لِهَذَا الأَمْرِ وَأَوْجَسَ خِيفَةً عَلَى وَالِدِهِ، هَلْ مَاتَ وَاللهُ غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُ أَمْ أَنَّ اللهَ لَا يُرِيدُ لِهَذَا الأَمْرِ أَنْ يَتِمَّ، بِهَذِهِ اللَّحْظَةِ تَذَكَّرَ رَجُلاً حَكِيماً كَانَ صَدِيقاً لِوَالِدِهِ فَقَرَّرَ الذَّهَابَ إِلَيْهِ وَإِعْلَامَهُ بِالأَمْرِ، لَمْ يَكُنْ بَيْتُ الرَّجُلِ بَعِيداً، وَصَلَ إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ، طَرَقَ البَابَ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ فَخَرَجَ الرَّجُلُ مَذْعُوراً، فَتَحَ البَابَ وَنَظَرَ لِوَجْهِ مِيخَائِيلَ الَّذِي يَتَحَدَّثُ بِدُونِ نُطْقٍ، أَمْسَكَ الرَّجُلُ يَدَه مُرَحِّباً وَأَدْخَلَهُ البَيْتَ وَهَدَّأَ مِنْ رَوْعِهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُحَدِّثَهُ عَنْ سَبَبِ مَجِيئِهِ وَخَوْفِهِ الشَّدِيدِ فَقَصَّ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ مَعَهُ فَعَلِمَ الرَّجُلُ سَبَبَ عَدَمِ مَقْدِرَته الذَّهَابَ إِلَى الكَنِيسَةِ لَكِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُ بِالأَمْرِ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَدْفِنَهُ بَعِيداً وَعَدَمِ إِخْبَارِ الكَنِيسَةِ وَطَمْأَنَهُ بِأَنَّ وَالِدَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ رَاضٍ عَنْهُ، حَاوَلَ الاسْتِفْسَارَ عَنْ الأَمْرِ لَكِنَّ الرَّجُلَ أَشَارَ عَلَيْهِ الإِسْرَاعَ فِي دَفْنِ وَالِدِهِ وَإِنْ عَلِمَتِ الكَنِيسَةُ عَلَيْهِ التَّذَرُّعَ بِأَنَّ وَالِدَهُ أُصِيبَ بِمَرَضٍ شَدِيدِ العَدْوَى، وَقَدْ خَافَ انْتِقَالَ المَرَضِ إِلَى الحُضُورِ، عَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَرَأْسُهُ قَدْ مُلِئَ بِحَيْرَةٍ لَا تَعْرِفُ النِّهَايَةَ وَلِمَ هَذَا الأَمْرُ قَدْ حَدَثَ؟ هَلْ هِيَ مُعْجِزَةٌ مِنَ اللهِ؟ أَمْ هُوَ غَضَبٌ حَلَّ عَلَى وَالِدِهِ؟

هَلِ المَلَائِكَةُ هِيَ الَّتِي قَيَّدَتْ قَدَمَيْهِ لِلْعُزُوفِ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى الكَنِيسَةِ أَمْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ جَلَسَتْ عَلَى ظَهْرِهِ وَمَنَعَتْهُ؟ أَمْرٌ لَا يُعْرَفُ لَهُ تَفْسِيرٌ، لِمَ الحَكِيمُ طَلَبَ إِلَيْهِ دَفْنَ وَالِدِهِ بَعِيداً؟ أَسْئِلَةٌ سَتَظَلُّ مُعَلَّقَةً بِذِهْنِهِ لَنْ يَعْرِفَ لَهَا جَوَاباً إِلَّا بَعْدَ سِنِينَ عَدِيدَةٍ. فِي هَذَا المَوْقِفِ لَمْ يَكُنْ لِه الاستِطْرَاقُ فِي الأَمْرِ بَلْ عَلَيْهِ دَفْنُ وَالِدِهِ، مَشَى مُسْرِعاً نَحْوَ مَنْزِلِهِ وَحَمَلَ وَالِدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ لِيَجِدَهُ حِمْلاً خَفِيفاً كَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ شَيْئاً عِنْدَهَا عَلِمَ بَلْ أَيْقَنَ أَنَّ وَالِدَهُ لَمْ يَكُنْ مُقَدَّراً لَهُ الدَّفْنُ فِي مَقْبَرَةِ الكَنِيسَةِ وَحَمْلُهُ إِلَى بُقْعَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِأَسْفَلِ وَادٍ خَصِيبٍ تُحِيطُ بِهِ أَشْجَارُ السَّرْوِ وَيُعَطِّرُ جَوَّهُ شَجَرُ الزَّيْزَفُونِ، قَبْلَ الغُرُوبِ بِقَلِيلٍ

وَعِنْدَمَا أَرَادَ وَضْعَ وَالِدِهِ بِقَبْرِهِ جَاءَ العَجُوزُ الحَكِيمُ وَجَلَسَ عَلَى حَافَّةِ القَبْرِ وَبَدَأَ يَتَمْتَمُ بِكَلِمَاتٍ غَرِيبَةٍ بَلْ بِلُغَةٍ غَرِيبَةٍ، وَقَفَ مِيخَائِيلُ مِنَ المَشْهَدِ الغَرِيبِ الَّذِي يَحْدُثُ، هُوَ لَا يَفْقَهُ شَيْئاً مِمَّا قَالَهُ الحَكِيمُ وَلَكِنَّهُ عَلَى عِلْمٍ بِمَدَى حِكْمَةِ العَجُوزِ فَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ وَدَفَنَ وَالِدَهُ ثُمَّ ذَهَبَ الحَكِيمُ إِلَى مَنْزِلِهِ بَعْدَ أَنْ طَلَبَ إِلَيْهِ أَلَّا يَقُصَّ عَلَى أَحَدٍ مَا شَاهَدَهُ أَيّاً كَانَ حَتَّى زَوْجَتَهُ.

مَرَّتِ الأَيَّامُ مُسْرِعَةً وَحَالُ البَيْتِ الَّذِي احْتَضَنَ العَجُوزَ لِسِنِينَ طَوِيلَةٍ قَدْ أَصَابَهُ فَرَاغٌ كَبِيرٌ وَقَلَّتِ البَرَكَةُ مِنَ البَيْتِ وَالأَرْضِ الَّتِي وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ قَدْ بَدَأَ مَحْصُولُهَا يَقِلُّ عَاماً بَعْدَ عَامٍ وَلَمْ تَعُدْ تَكْفِي عَائِلَتَهُ الَّتِي كَبُرَتْ وَأَصْبَحَتْ مُكَوَّنَةً مِنْ خَمْسَةِ أَفْرَادٍ. بَعْدَ مُرُورِ خَمْسِ سِنِينَ عَلَى رَحِيلِ وَالِدِهِ وَفِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ جَاءَهُ وَالِدُهُ فِي مَنَامِهِ وَقَالَ لَهُ: "إِيَّاكَ وَالحَائِطَ، لَا تَدْخُلْ بَيْتَ الثُّعْبَانِ وَالعَقْرَبِ وَإِنْ نَسِيتَ وَدَخَلْتَ فَكُنْ صَاحِباً لِرَجُلٍ لَا يُكَلِّمُهُ عِشْرُونَ رَجُلاً"، اسْتَيْقَظَ وَنَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ خَائِفاً وَاتَّجَهَ نَحْوَ البَابِ فَتَحَهُ فَهَبَّ عَلَيْهِ نَسِيمٌ بَارِدٌ مِنَ الجَبَلِ الَّذِي عَشِقَهُ وَالِدُهُ بَعْدَمَا سَكَنَتْ رُوحُهُ قَالَ: يَا رَبِّ أَنْتَ تَعْلَمُ الخَيْرَ وَأَنَا لَا أَعْلَمُهُ.. ارْزُقْنِي مِمَّا رَزَقْتَ وَالِدِي مِنْهُ، رَجَعَ إِلَى فِرَاشِهِ وَقَدِ اسْتَقَرَّتْ نَفْسُهُ وَارْتَاحَ مِنْ بَعْدِهَا سَنَةً وَأَكْثَرَ وَهُوَ فِي حَالَةٍ جَيِّدَةٍ.

تَمُرُّ الأَيَّامُ وَيَأْتِي قَدَرُ اللهِ فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى زِرَاعَةِ أَرْضِهِ وَلَمْ تَبْقَ حَبَّةُ قَمْحٍ فِي قَرْيَتِهِ حَتَّى يَزْرَعَ أَرْضَهُ فَيُضْطَرُّ لِلذَّهَابِ إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى حَتَّى يَشْتَرِيَ القَمْحَ وَيَزْرَعَ أَرْضَهُ، فِي صَبَاحِ ذَلِكَ اليَوْمِ رَكِبَ حِمَارَهُ وَوَدَّعَ أَوْلَادَهُ وَوَقَفَتْ صُوفِيَا بِبَابِ البَيْتِ وَعُيُونُهَا قَدِ ازْدَادَتْ سَوَاداً وَاتَّشَحَتْ ظُلْمَةً عَلَى رَحِيلِ زَوْجِهَا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ السَّفَرَ لَا يَسْتَغْرِقُ أَكْثَرَ مِنْ أُسْبُوعٍ، نَظَرَ إِلَى زَوْجَتِهِ وَرَبَتَ عَلَى كَتِفِهَا وَقَالَ: أَنْتِ أُمٌّ حَنُونَةٌ وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ ثِقِي بِاللهِ، فَاللهُ يُرِيدُ الخَيْرَ لَنَا،

تَبَسَّمَتْ وَقَدْ أَضَاءَتْ هَذِهِ الكَلِمَاتُ قَلْبَهَا فَدَخَلَتْ بَيْتَهَا مَعَ صِغَارِهَا الثَّلَاثَةِ ثُمَّ رَكِبَ حِمَارَهُ بِرِحْلَةٍ لَا يَعْرِفُ أَنَّهَا سَتَدُومُ طَوِيلاً لَيْسَ لِأُسْبُوعٍ وَاحِدٍ وَلَا لِشَهْرٍ وَاحِدٍ بَلْ لِعِشْرِينَ سَنَةً سَيَقْضِيهَا ظُلْماً لِأَنَّهُ سَوْفَ يَنْسَى وَصِيَّةَ وَالِدِهِ.

كَانَتِ الرِّيحُ قَدْ بَدَأَتْ تَهُزُّ كِيَانَ أَشْجَارِ السَّرْوِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ بَدَأَ يَتَّجِهُ إِلَى الرَّبِيعِ، وَالوُعُولُ تَقْضِمُ الأُشَنَ الَّتِي اسْتَتَرَتْ تَحْتَ غِطَاءِ الثَّلْجِ المُتَهَالِكِ وَقَدْ تَشَكَّلَ القَطِيعُ دَائِرَةً كَبِيرَةً فَعَلَى مَا يَبْدُو أَنَّ عَاصِفَةً عَلَى الأَبْوَابِ، كَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا بِمِثْلِ ذَلِكَ الوَقْتِ لَكِنَّ القَدَرَ قَدْ أَشْعَلَ النَّارَ حَتَّى يَصِلَ حَلْقَةً مِنْ سِلْسِلَةِ حَيَاةِ مِيخَائِيلَ، هُوَ عَنِيدٌ عِنَادَ وَالِدِهِ لَا يُرِيدُ الرُّجُوعَ رَغْمَ مَعْرِفَتِهِ بِالعَاصِفَةِ الَّتِي عَلَى الأَبْوَابِ، وَبَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ بَدَأَتِ العَاصِفَةُ وَسَارَ بِوَسَطِهَا وَتَلَثَّمَ بِقِطْعَةٍ مِنَ القُمَاشِ عَلَى أَنْفِهِ وَلَكِنَّ غُبَارَ الثَّلْجِ جَعَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ أَمْراً صَعْباً وَالطَّرِيقُ قَدِ اخْتَفَى فَضَلَّ الطَّرِيقَ وَبَدَأَ اللَّيْلُ يَقْصِمُ ظَهْرَ العَاصِفَةِ وَيَكْسُو الدُّنْيَا ثَوْبَ النَّائِحَةِ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهَا. عِنْدَهَا ضَلَّ الطَّرِيقَ وَالذِّئَابُ بَدَأَتْ تَعْوِي وَطَائِرُ البُومِ يَنْعَقُ مِمَّا جَعَلَ قَلْبَه يَرْتَجِفُ خَوْفاً، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ الوُقُوفَ يَعْنِي الهَلَاكَ، وَبَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ لَاحَظَ ضَوْءَ نَارٍ مِنْ بَعِيدٍ فَالتَجَأَ إِلَى ذَلِكَ الضَّوْءِ وَعِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى البَابِ طَرَقَهُ بِحَذَرٍ وَبَعْدَ طَرْقَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ فَتَحَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، كَانَتْ تَبْدُو فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا وَتَبْدُو عَلَيْهَا مَلَامِحُ البَرَاءَةِ فَدَعَتْهُ لِلدُّخُولِ وَنَادَتْ لِزَوْجِهَا الخَمْسِينِيِّ الَّذِي احْتَفَى بِهِ وَأَكْرَمَ ضِيَافَتَهُ، وَمِنْ غُرْفَةٍ مُقَابِلَةٍ خَرَجَتِ امْرَأَةٌ يَبْدُو أَنَّهَا فِي الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَأَحَسَّ بِأَنَّ شَيْطَاناً يَجْلِسُ عَلَى كَتِفِهَا فَخَافَ مِنْهَا، فَعَلَى مَا يَبْدُو أَنَّهَا حَبِيسَةُ انْتِقَامٍ وَقَهْرٍ يَجُوبُ دَاخِلَهَا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، جَلَسَ الأَرْبَعَةُ حَوْلَ مَوْقِدِ النَّارِ فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ وَرَأَى مِنَ الرَّجُلِ لَطَافَةً وَحُسْنَ ضِيَافَةٍ أَنْسَتْهُ مَا رَأَى مِنَ المَرْأَةِ الَّتِي خَافَ مِنْهَا.

صَنَعَتِ المَرْأَةُ الثَّلَاثِينِيَّةُ حِسَاءً سَاخِناً مِنَ الخُضَارِ وَرُؤُوسِ السَّمَكِ وَقَدَّمَتْهُ لِلضَّيْفِ الَّذِي شَرِبَهُ وَأَحَسَّ بِالدِّفْءِ، كَانَتْ أُمْسِيَةً مُخْتَلِطَةَ المَشَاعِرِ بِجَوْفِ مِيخَائِيلَ، هُنَالِكَ صِرَاعٌ بَيْنَ الخَوْفِ وَالطُّمَأْنِينَةِ دَاخِلَ قَلْبِهِ وَلَكِنَّهُ مُجْبَرٌ عَلَى المُكُوثِ عِنْدَهُمْ، كَانَ المَنْزِلُ مُكَوَّناً مِنْ ثَلَاثِ غُرَفٍ وَعِنْدَ وَقْتِ النَّوْمِ أَخَذَه الرجل إِلَى غُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ البَيْتِ وَأَحْضَرَ لَهُ فِرَاشاً وَوَسَائِدَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ النَّوْمَ لِأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ شِجَارٍ خَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ المُجَاوِرَةِ وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ هَدَأَ الصَّوْتُ بَعْدَ صَرْخَةٍ قَوِيَّةٍ أَرَادَ الخُرُوجَ لِحِينِهَا لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الخُرُوجَ بِسَبَبِ الظُّنُونِ وَالمَخَاوِفِ مِنْ تِلْكَ المَرْأَةِ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَغَطَّ بِنَوْمٍ عَمِيقٍ لِيَسْتَيْقِظَ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ عَلَى صَرْخَةٍ أُخْرَى ارْتَعَبَ مِنْهَا، فَعِنْدَهَا قَرَّرَ الخُرُوجَ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ لَمْ يَجِدْ سِوَى تِلْكَ المَرْأَةِ فَسَأَلَهَا عَنْ أَمْرِ الصُّرَاخِ فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّهُ قَدْ حَدَثَ شِجَارٌ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ، وَقَامَ بِضَرْبِهَا وَكَسْرِ يَدِهَا وَهُوَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى طَبِيبٍ وَأَتَى بِهِ لِيَجْبُرَهَا وَأَنَّ الصَّرْخَةَ الثَّانِيَةَ كَانَتْ جَرَّاءَ تَسْوِيَةِ العَظْمِ، فَأَرَادَ الدُّخُولَ لِلْغُرْفَةِ المُجَاوِرَةِ فَخَرَجَ رَجُلٌ ادَّعَى أَنَّهُ الطَّبِيبُ وَلَمْ يَسْمَحْ لَهُ بِالدُّخُولِ وَتَذَرَّعَ بِأَنَّ المَرْأَةَ وَزَوْجَهَا بِحَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ فَلَمْ يَشَأْ مُخَالَفَته وَعَادَ إِلَى فِرَاشِهِ وَنَامَ حَتَّى الصَّبَاحِ.

فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي خَرَجَ وَلَمْ يَجِدْ أَحَداً فَأَقْنَعَ نَفْسَهُ بِأَنَّ الجَمِيعَ قَدْ ذَهَبُوا لِاسْتِكْمَالِ العِلَاجِ فِي مَكَانٍ آخَرَ فَأَمْسَكَ وَرَقَةً وَكَتَبَ عَلَيْهَا شُكْرَهُ لِلرَّجُلِ وَخَرَجَ فَرَكِبَ حِمَارَهُ وَذَهَبَ إِلَى مُبْتَغَاهُ... اشْتَرَى القَمْحَ وَهُوَ فِي طَرِيقِ العَوْدَةِ صَادَفَتْهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ أَفْرَادِ الشُّرْطَةِ وَأَمْسَكَتْ بِهِ وَاتَّهَمَتْهُ بِقَضِيَّةِ قَتْلٍ فَاسْتَغْرَبَ مِنَ المَوْضُوعِ وَقَالَ: قَتْلُ مَنْ.. أَنَا مُسَافِرٌ، اشْتَرَيْتُ قَمْحاً وَأَنَا فِي طَرِيقِ العَوْدَةِ إِلَى بَيْتِي. فَقَالُوا لَهُ: قُتِلَ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ أَنْتَ كُنْتَ نَائِماً فِي مَنْزِلِهِمَا، وَفَتَّشُوا حِمْلَهُ فَوَجَدُوا سِكِّيناً كَبِيرَةً مَخْفِيَّةً بِسَرْجِ الحِمَارِ فَأَقْسَمَ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ

وَلَا يَعْرِفُ بِأَمْرِهَا وَلَكِنَّ قَسَمَهُ لَمْ يُقْنِعِ الدَّوْرِيَّةَ فَأَلْقَتِ القَبْضَ عَلَيْهِ وَسَاقَتْهُ إِلَى السِّجْنِ.

وَفِي الجَانِبِ المُقَابِلِ أَمْطَرَتِ الجَوْهَرَةُ السَّوْدَاءُ مِنْ سَهْمِ الخَوْفِ الَّذِي أَصَابَ كَبِدَ سَمَاءِ صُوفِيَا الصَّافِي وَكَأَنَّ عَاصِفَةً هَبَّتْ عَلَيْهِ وَحَمَلَتْ غُيُوماً سَوْدَاءَ لِتُحِيطَ بِالشَّمْسِ الَّتِي تُضِيءُ سَمَاءَ الطُّمَأْنِينَةِ وَلَكِنَّ كَوْكَبَ الزُّهَرَةِ ظَهَرَ وَأَضَاءَ مُحَيَّا وَجْهِهَا فَأَسْلَمَتْ أَمْرَهَا للهِ وَاحْتَضَنَتْ أَوْلَادَهَا بَعْدَ أَنْ أَيْقَنَتْ أَنَّ زَوْجَهَا لَنْ يَعُودَ وَقَدِ اخْتَارَ اللهُ لَهَا ذَلِكَ لِخَيْرٍ يَعْلَمُهُ وَهِيَ لَا تَعْلَمُهُ. أَمَّا هو فَقَدْ عُرِضَ عَلَى المَحْكَمَةِ وَبَدَأَتِ الجَلْسَةُ وَقَالَ القَاضِي: المُتَّهَمُ مِيخَائِيلُ أَنْتَ مُتَّهَمٌ بِقَتْلِ امْرَأَةٍ رَاوَدْتَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَزَوْجِهَا الَّذِي حَاوَلَ مَنْعَكَ فَمَاذَا تَقُولُ؟ شَخَصَ بَصَرُه مِمَّا سَمِعَهُ.. مَاذَا يَقُولُ القَاضِي؟ لَمْ يَسْتَطِعِ الحَدِيثَ لِلْوَهْلَةِ الأُولَى مِمَّا سَمِعَهُ، قَاتِلٌ وَمُتَحَرِّشٌ.. وَلَكِنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا القَاضِي لَوْ كُنْتُ قَتَلْتُ المَرْأَةَ وَزَوْجَهَا لَمَا كُنْتُ قَدْ وَضَعْتُ وَرَقَةً عَلَيْهَا شُكْرِي وَاسْمِي فَهَلْ هَذَا يَعْقِلُ؟ وَأَيْنَ الشُّهُودُ عَلَى هَذَا الأَمْرِ؟ فَخَرَجَتِ المَرْأَةُ وَالرَّجُلُ الَّذِي شَاهَدَهُ خَارِجاً مِنَ الغُرْفَةِ وَقَالُوا بِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ عَلَى أَمْرِ القَتْلِ وَأَنَّ الرِّسَالَةَ مَا هِيَ إِلَّا كِذْبَةٌ حَتَّى يُغَطِّيَ بِهَا فَعْلَتَهُ، وَلَمْ تَعْثُرِ المَحْكَمَةُ عَلَى الرِّسَالَةِ الَّتِي وَضَعَهَا فَالْمَرْأَةُ أَخْفَتْهَا وَشَهِدَ الرَّجُلُ بِأَنَّهُ خَلَّصَ المَرْأَةَ مِنْ يَدَيْه وَأَنَّ يَدَ المَرْأَةِ قَدْ جُرِحَتْ وَهِيَ تُقَاوِمُه وَكَشَفَتْ عَنْ يَدِهَا وَبِالفِعْلِ كَانَتْ مَجْرُوحَةً. عِنْدَهَا لَمْ يَتَبَقَّ مَجَالٌ لِلشَّكِّ أَمَامَ القَاضِي فَكُلُّ شَيْءٍ يُدِينُ ذَلِكَ المِسْكِينَ وَأَصْدَرَتِ المَحْكَمَةُ قَرَاراً بِسَجْنِهِ عِشْرِينَ سَنَةً عِنْدَهَا تَذَكَّرَ كَلَامَ وَالِدِهِ فِي مَنَامِهِ: "لَا تَدْخُلْ بَيْتَ الثُّعْبَانِ وَالعَقْرَبِ" وَلَكِنَّ الأَوَانَ قَدْ فَاتَ وَأَيْقَنَ أَنَّ المَرْأَةَ هِيَ العَقْرَبُ وَالرَّجُلَ هُوَ الثُّعْبَانُ، وَالقِصَّةُ الحَقِيقِيَّةُ أَنَّ المَرْأَةَ قَدْ قَتَلَتْ أَخَاهَا لِأَنَّهُ مَنَعَهَا مِنَ الزَّوَاجِ بِمَنْ تُحِبُّ ثُمَّ قَتَلَتْ زَوْجَتَهُ لِأَنَّهَا عَلِمَتْ بِالأَمْرِ بِمُسَاعَدَةِ الرَّجُلِ الَّذِي يَكُونُ عَشِيقَهَا وَكَانَا قَدِ اتَّفَقَا عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ حَتَّى تَرِثَ المَرْأَةُ البَيْتَ وَتَعِيشَ مَعَ عَشِيقِهَا، وَكَانَا يَنْتَظِرَانِ اللَّحْظَةَ المُنَاسِبَةَ وَكَانَتْ عِنْدَ قُدُومِهِ، وَكَانَتِ المَرْأَةُ قَدْ أَعْلَمَتْ عَشِيقَهَا بِقُدُومِ مِيخَائِيلَ وَتَمَّتِ الجَرِيمَةُ وَلُفِّقَتِ الجَرِيمَةُ عَلَيْهِ، صُفِّدَتْ يَدَاهُ وَقِيدَ إِلَى السِّجْنِ الَّذِي

كَانَ يَحْوِي عِشْرِينَ رَجُلاً، وَفِي زَاوِيَتِهِ البَارِدَةِ كَانَ رَجُلٌ لَا يُكَلِّمُهُ أَحَدٌ، وَبِالْفِعْلِ حَاوَلَ التَّقَرُّبَ مِنْهُ فَكُلُّ مَا حَدَثَ إِنَّمَا كَانَ لِيَلْتَقِيَ بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تَبْدُو عَلَيْهِ مَلَامِحُ العَذَابِ وَالقَهْرِ، كَانَ شَعْرُهُ مَنْفُوشاً وَثِيَابُهُ مُمَزَّقَةً لَهُ وَجْهٌ مُوَرَّدٌ يَسُرُّ النَّاظِرَ، جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَرَّفَهُ عَنْ اسْمِهِ وَقَصَّ مَا حَدَثَ لَهُ وَعَنْ قِصَّةِ رُؤْيَاهُ مَعَ وَالِدِهِ وَقِصَّةِ وَالِدِهِ، قَبِلَ الرَّجُلُ صَدَاقَتَهُ وَعَرَّفَهُ بِاسْمِهِ، كَانَ يُدْعَى التَّاجِرَ عُمَرَ المَحْكُومَ عَلَيْهِ بِالإِعْدَامِ لِأَنَّهُ يَتَّبِعُ دِيناً مُغَايِراً لِدِينِ الكَنِيسَةِ.

بَدَأَتْ صَدَاقَةُ مِيخَائِيلَ وَعُمَرَ تَزْدَادُ قُوَّةً وَثِقَةً وَأَخْبَرَهُ عَنْ رِحْلَاتِهِ وَأَخْبَارِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ عمر قِصَّةً كَادَتْ تُوقِفُ قَلْبَه أَلَا وَهِيَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَفِي أَسْفَارِهِ قَدْ عَثَرَ عَلَى رَجُلٍ ضَالٍّ فَسَاعَدَهُ وَأَنْقَذَ حَيَاتَهُ لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ بَلْ عَلَّمَهُ الإِسْلَامَ، يَا لَقَدَرِكَ يَا اللهُ إِنَّهُ وَالِدي الَّذِي كَتَمَ إِسْلَامَهُ. عَلِمَ عِنْدَهَا لِمَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى دَفْنِهِ فِي مَقَابِرِ الكَنِيسَةِ وَعَلِمَ تِلْكَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَمْتَمَ بِهَا الحَكِيمُ، إِنَّهَا آيَاتٌ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ.
عِنْدَهَا أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ أَمَامَ عُمَرَ الَّذِي عَلَّمَهُ أُسُسَ الدِّينِ وَبَعْضَ آيَاتِ القُرْآنِ. مَضَتِ الأَيَّامُ مُسْرِعَةً وَلَمْ يَشْعُرْ بَطَلُنَا بِثِقْلِ سِجْنِهِ فَكَانَ يُوجَدُ مَنْ يُوَاسِيهِ وَيُعَلِّمُهُ الصَّبْرَ وَالحِكْمَةَ وَلَكِنَّ الحَالَ لَا يَبْقَى عَلَى حَالِهِ فَبَعْدَ سَنَةٍ حَانَ وَقْتُ تَنْفِيذِ الحُكْمِ عَلَى التَّاجِرِ عُمَرَ، وَلَكِنْ قَبْلَ تَنْفِيذِ الحُكْمِ بِيَوْمٍ أَخْبَرَ صَدِيقَهُ عَنْ مَغَارَةٍ بِجَبَلِ الوَعْلِ كَانَ قَدْ خَبَّأَ بِهَا نُسْخَةً مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَأَوْصَاهُ بِنَشْرِ الإِسْلَامِ. فِي اليَوْمِ التَّالِي حَضَرَ السَّجَّانُ وَسَاقَ عُمَرَ إِلَى حُكْمِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ تَوَضَّأَ وَنَظَّفَ نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ.

لَمْ يَكُنْ آبِهاً بِالمَوْتِ وَكَأَنَّهُ يَوْمٌ كَبَاقِي الأَيَّامِ، صَعَدَ عَلَى الكُرْسِيِّ وَقَدْ تَحَلَّقَ حَوْلَهُ جَلَّادُوهُ وَهُوَ بِوَسَطِهِمْ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ بِهِمْ وَهُوَ يَرْفَعُ بِصَوْتِهِ الشَّهَادَةَ الَّتِي غُرِسَتْ بِقَلْبِهِ، تِلْكَ الشَّهَادَةُ الَّتِي هَزَّتْ كِيَانَ السِّجْنِ وَكِيَانَ جَلَّادِيهِ، انْقَطَعَ الصَّوْتُ مِنْ بَعْدِهَا لِيُصْبِحَ عُمَرُ جُثْمَاناً تَتَغَمَّدُهُ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا. بَعْدَ هَذِهِ الحَادِثَةِ بَقِيَ مِيخَائِيلُ فِي فَرَاغٍ تَامٍّ، فَرَغَ قَلْبُهُ مِنْ كُلِّ أَمَلٍ يَحْمِلُهُ عَلَى الحَيَاةِ فَهُوَ فِي سِجْنٍ لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ وَبَيْنَ أُنَاسٍ كَأَنَّهُمْ قَدِ اقْتُطِعُوا مِنْ حَجَرٍ أَصَمَّ، وَهُوَ حَبِيسُ جُدْرَانٍ بَارِدَةٍ مِنْ جِهَةٍ وَحَبِيسُ دِينِهِ الجَدِيدِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَهُوَ لَا

يَسْتَطِيعُ النُّطْقَ بِهِ حَتَّى، فَإِنْ عَلِمَتِ الكَنِيسَةُ بِهِ كَانَ مَصِيرُهُ الإِعْدَامَ فَلَمْ يُظْهِرْ إِسْلَامَهُ لِأَحَدٍ مِنَ السُّجَنَاءِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُعَزِّي نَفْسَهُ بِدِينِهِ الجَدِيدِ. أَيَّامٌ طَوِيلَةٌ مَرَّتْ عَلَيْهِ وَشَوْقُهُ الَّذِي يَنْفَجِرُ يَنَابِيعاً مَالِحَةً تُحْرِقُ وَتُذِيبُ كُتْلَةَ الثَّلْجِ الَّتِي بِدَاخِلِ جَبَلِهِ، فَهُوَ جَبَلٌ سَوْفَ يَتَذَوَّقُ حَلَاوَةَ الأَمْرِ الَّذِي هَيَّأَهُ اللهُ لَهُ. أَمَّا صُوفِيَا المَرْأَةُ الصَّبُورَةُ الَّتِي كَانَتْ تُعِيلُ أَوْلَادَهَا مِنْ عَمَلِهَا بِالخِيَاطَةِ مَرَّةً وَبِالعَمَلِ فِي مَنَازِلِ النَّاسِ مَرَّةً أُخْرَى، كَانَتْ عَلَى وَشَكِ أَنْ تَفْقِدَ الأَمَلَ وَتَنْهَارَ أَمَامَ عَاصِفَةِ السُّوءِ الَّتِي حَلَّتْ بِهَا حَتَّى جَاءَهَا خَبَرٌ بِأَنَّ زَوْجَهَا حَيٌّ يُرْزَقُ مِنْ أَحَدِ السُّجَنَاءِ المُفْرَجِ عَنْهُمْ، كَانَ هَذَا الخَبَرُ بِالنسبَةِ لَهَا دَافِعاً قَوِيّاً بِالاسْتِمْرَارِ بِالحَيَاةِ وَالنِّضَالِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ حَتَّى تَرَى زَوْجَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا وَأَمَامَ عَيْنَيْهَا، حَاوَلَتْ زِيَارَتَهُ مِرَاراً وَتَكْرَاراً لَكِنَّهَا لَمْ تُفْلِحْ وَلَمْ يُسْمَحْ لَهَا بِزِيَارَتِهِ أَبَداً لَكِنَّهَا لَمْ تَيْأَسْ أَبَداً مِنْ حِينِهَا وَعَمِلَتْ بِكَامِلِ قُوَّتِهَا حَتَّى تُعِيلَ صِغَارَهَا.

عَشْرُ سِنِينَ عَلَى سِجْنِه وَلَمْ يَنْبَثِقِ النُّورُ بَعْدُ، وَصُوفِيَا قَدْ بَدَأَتْ تَنْهَارَ أَمَامَ الأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا، وَالطِّفْلُ الَّذِي مَرَّغَ وَجْهَ جَدِّهِ بِلُعَابِهِ قَدْ كَبُرَ وَأَصْبَحَ مُشَاكِساً كَانَ اسْمُهُ دَانِيِيل وَهُوَ يُحِبُّ الأَرَانِبَ كَثِيراً وَيَخْرُجُ إِلَى المَرَاعِي حَتَّى يُشَاهِدَهَا وَيُحَاوِلَ الإِمْسَاكَ بِهَا دَائِماً وَلَكِنَّهُ يَفْشَلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ فَهِيَ سَرِيعَةٌ بِالنسبَةِ لَهُ، وَفِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَعُودُ إِلَى البَيْتِ وَقَدْ تَجَرَّحَتْ قَدَمَاهُ مِنَ الرَّكْضِ وَرَاءَ الأَرَانِبِ اللَّعِينَةِ وَيَرْتَمِي بِحِضْنِ أُمِّهِ وَيَبْكِي لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ اللَّحَاقَ بِهَا، تَبَسَّمَتْ صُوفِيَا بِحُنُوٍّ تِجَاهَ ابْنِهَا وَوَعَدَتْهُ بِأَنْ تَشْتَرِيَ لَهُ زَوْجاً أَلِيفاً، عِنْدَهَا قَفَزَ دَانِيِيل فَرَحاً مِنْ حِضْنِهَا وَنَسِيَ جِرَاحَهُ وَضَحِكَ بِصَوْتٍ عَالٍ.
فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ نَظَرَتِ الأُمُّ إِلَى عَيْنَيْ طِفْلِهَا وَتَذَكَّرَتْ زَوْجَهَا فَعُيُونُهُ تُشْبِهُ أَعْيُنَ وَالِدِهِ، وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى صَدْرِهَا وَغَابَتْ بَيْنَ ذِرَاعَيْ أَشْوَاقِهَا لِزَوْجِهَا وَذِكْرَيَاتِهَا الجَمِيلَةِ مَعَهُ.. "مَتَى يَكُونُ الأَرْنَبُ عِنْدِي؟!" عِنْدَهَا انْفَجَرَتْ صُوفِيَا بِالضَّحِكِ مَعَ صَوْتِ وَلَدِهَا الَّذِي يُرِيدُ الأَرْنَبَ سَرِيعاً وَلَمْ تَغِبْ شَمْسُ ذَلِكَ اليَوْمِ حَتَّى اشْتَرَتْ زَوْجَ أَرَانِبَ لَهُ، لَمْ يَدْرِ أَنَّ هَذَا القَرَارَ سَوْفَ يُغَيِّرُ قَدَرَهُ إِلَى الأَبَدِ، أَجَلْ إِنَّهُ القَدَرُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ المُسْتَحِيلَ. حَمَلَ دَانِيِيل زَوْجَ الأَرَانِبِ الأَبْيَضَ

وَرَكَضَ فَرَحاً إِلَى البَيْتِ وَوَضَعَهُمَا فِي فِنَاءِ البَيْتِ حَيْثُ كَانَ يُوجَدُ حَائِطٌ مُتَهَالِكٌ مِنَ الحِجَارَةِ الَّتِي تَبْدُو أَنَّهَا تَعُودُ لِأَعْوَامٍ طَوِيلَةٍ قَدْ خَلَتْ وَحَوْلَهُ تُرَابٌ رَخْوٌ، وَهَذَا مَكَانٌ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مِنَ المُنَاسِبِ تَرْبِيَةُ الزَّوْجِ بِهِ، وَضَعَهُ بِقَفَصٍ خَشَبِيٍ فَالوَقْتُ قَدْ تَأَخَّرَ وَحَانَ مَوْعِدُ النَّوْمِ وَذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ وَاحْتَضَنَ أُمَّهُ وَنَامَ وَهُوَ يَحْلُمُ بِحُلْمٍ طُفُولِيٍ جَمِيلٍ فَهُوَ لَمْ يُكَابِدِ الحَيَاةَ وَلَمْ يُعَارِكْهَا بَعْدُ وَلَا يَعْرِفُ المُسْتَقْبَلَ الَّذِي رُسِمَ لَهُ، مَسَحَتْ أُمُّهُ عَلَى شَعْرِهِ المُرْسَلِ وَغَرِقَتْ بِدُمُوعِهَا فَرَحاً بِهِ وَحُزْناً عَلَى زَوْجِهَا المَسْجُونِ ظُلْماً وَغَطَّتْ بِنَوْمٍ عَمِيقٍ بَيْنَ أَوْلَادِهَا وَهِيَ تَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَفُكَّ أَسْرَ زَوْجِهَا وَيَرَى أَوْلَادَهُ وَيَحْتَضِنَهُمْ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فِي النَّهَارِ التَّالِي فَانْسَلَّ دَانِيبِل مِنْ بَيْنَ ذِرَاعَيْ أُمِّهِ وَذَهَبَ إِلَى الفِنَاءِ وَبَدَأَ يَصْنَعُ بَيْتاً لِزَوْجِ الأَرَانِبِ وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ بِقُرْبِ الجِدَارِ المُتَهَالِكِ وَبِالْفِعْلِ مَا هِيَ إِلَّا سَاعَاتٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى أَنْهَى عَمَلَهُ وَكَانَ سَعِيداً جِدّاً بِهِ وَقَدَّمَ لَهُمَا أَوْرَاقَ المَلْفُوفِ وَبَعْضَ الجَزَرِ حِينَهَا قَطَعَ صَوْتُ تَنَاوُلِ الفُطُورِ فَرْحَتَهُ، بَعْدَمَا انْتَهَى جَرَّ يَدَ أُمِّهِ لِيُرِيَهَا عَمَلَهُ فَذَهَبَتْ مَعَهُ وَتَبِعَهَا بَقِيَّةُ إِخْوَتِهِ الَّذِينَ تَحَلَّقُوا حَوْلَ البَيْتِ الَّذِي صَنَعَهُ وَلَعِبُوا حَوْلَهُ فَرِحِينَ بِهِ. لَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ كَثِيرَةٌ حَتَّى بَدَأَ الزَّوْجُ بِالحَفْرِ تَحْتَ الجِدَارِ المُتَآكِلِ وَكَبُرَ الجُحْرُ وَتَعَمَّقَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ وَدَانِيبِل يُرَاقِبُهُ بِكُلِّ شَوْقٍ وَتَلَهُّفٍ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ انْتَهَى الزَّوْجُ مِنْ حَفْرِ جُحْرِهِ وَلَكِنَّ أَمْراً سَيَحْدُثُ وَيُغَيِّرُ حَيَاةَ هَذِهِ العَائِلَةِ تَغْيِيراً كَبِيراً.. دَخَلَ ذَكَرُ الأَرَانِبِ جُحْرَهُ وَقَدْ رَصَدَهُ ثُعْبَانٌ ضَخْمٌ فَتَبِعَهُ إِلَى دَاخِلِ الجُحْرِ وَاعْتَصَرَهُ حَتَّى مَاتَ وَلَكِنَّ الثُّعْبَانَ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِن ابْتِلَاعِهِ فَهُوَ كَانَ ضَخْماً بِالنسبَةِ لِفَمِهِ فَانْسَلَّ وَخَرَجَ مِنَ الجُحْرِ مُخَلِّفاً وَرَاءَهُ جُثَّةَ الذَّكَرِ الَّتِي عَلِقَتْ فِي الدَّاخِلِ. لَاحَظَ الطِّفْلُ أَنَّ الذَّكَرَ غَيْرُ مَوْجُودٍ بَحَثَ وَبَحَثَ بِكُلِّ مَكَانٍ وَلَمْ يَجِدْهُ فَحَزِنَ عَلَيْهِ حُزْناً شَدِيداً وَانْهَمَرَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ كَأَنَّهَا نَدَى النَّرْجِسِ سَاعَةَ الصُّبْحِ وَارْتَمَى بِحِضْنِ أُمِّهِ الَّتِي هَدَّأَتْهُ وَوَعَدَتْهُ أَنْ تَشْتَرِيَ لَهُ ذَكَراً آخَرَ.

بَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ أَنْتَنَتْ جُثَّةُ الأَرْنَبِ فِي الدَّاخِلِ وَبَدَأَتِ الرَّائِحَةُ تَنْتَشِرُ وَأَصْبَحَ هَوَاءُ البَيْتِ مُلَوَّثاً بِرَائِحَةٍ نَتِنَةٍ كَرِيهَةٍ فَتَبِعَتِ الأُمُّ مَصْدَرَ الرَّائِحَةِ فَعَلِمَتْ أَنَّ مَصْدَرَ تِلْكَ الرَّائِحَةِ هُوَ الجُحْرُ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ

وَلَاحَظَتْ أَيْضاً أَنَّ الأُنْثَى لَمْ تَعُدْ تَدْخُلُ فَعَلِمَتْ أَنَّ الذَّكَرَ المَفْقُودَ قَدْ نَفَقَ دَاخِلَ جُحْرِهِ فَأَحْضَرَتْ مِعْوَلاً وَبَدَأَتِ الحَفْرَ حَتَّى تَسْتَخْرِجَ الذَّكَرَ النَّافِقَ كَيْ تَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ الرَّائِحَةِ، وَعِنْدَمَا وَصَلَتْ بِحَفْرِهَا لِنِهَايَةِ الجُحْرِ وَجَدَتِ الأَرْنَبَ النَّافِقَ وَبِجِوَارِهِ وَجَدَتْ قِطْعَةً فَخَّارِيَّةً أَخْرَجَتْهَا وَلَمْ يَدُرْ بِخَلْدِهَا أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ بِالذَّهَبِ.. كَانَتْ مُغْلَقَةً وَمُغَلَّفَةً بِقِطْعَةِ قُمَاشٍ مِنْ خُيُوطِ القِنَّبِ المُهْتَرِئِ فَقَدْ مَضَى عَلَى دَفْنِهَا وَقْتٌ طَوِيلٌ فَأَزَالَتْ تِلْكَ القِطْعَةَ لِتَنْظُرَ إِلَى المُفَاجَأَةِ الَّتِي بِدَاخِلِ هَذِهِ القِطْعَةِ الفَخَّارِيَّةِ، دُهِشَتْ بِمَا رَأَتْهُ وَخَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى وَجْهِهَا فَقَدْ تَسَمَّرَتْ بِأَرْضِهَا وَأَطْفَالُهَا يَرْمُقُونَهَا بِنَظَرَاتِ الاسْتِغْرَابِ فَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا مَاذَا يُوجَدُ أَمَامَهُمْ وَالمَدَى الَّذِي سَوْفَ يُؤَثِّرُهُ عَلَى حَيَاتِهِمْ، وَلَمْ تَسْتَفِقْ مِنْ صَدْمَتِهَا حَتَّى أَمْسَكَ طِفْلُهَا بِثَوْبِهَا وَشَدَّهُ: "أُمِّي مَتَى سَوْفَ تَشْتَرِينَ لِي ذَكَراً آخَرَ؟!" كَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً جَسُورَةً وَلَمْ يَغْرُهَا مَنْظَرُ الذَّهَبِ وَتَصَرَّفَتْ بِشَكْلٍ طَبِيعِيٍ فَهِيَ لَمْ تُرِدْ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِمَا وَجَدَتْهُ وَوَعَدَتْ وَلَدَهَا أَنَّهَا سَتَشْتَرِي لَهُ ذَكَراً بِالغَدِ.

أَمَرَتْهُمْ بِالعَوْدَةِ إِلَى المَنْزِلِ وَأَخَذَتِ القَلِيلَ مِنَ الذَّهَبِ وَأَعَادَتْ دَفْنَ البَاقِي حَتَّى لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ بِهِ وَتُصْبِحَ مَحَطَّ أَنْظَارِ اللُّصُوصِ وَيَكُونَ عَلَيْهَا نِقْمَةً وَيُودِيَ بِهَا لِلْقَتْلِ فَهِيَ لَا يُوجَدُ لَهَا زَوْجٌ يَحْمِيهَا، بَقِيَتْ صُوفِيَا تَعْمَلُ حَتَّى لَا يُكْشَفَ أَمْرُ مَا وَجَدَتْهُ وَأَرْسَلَتِ ابْنَهَا دَانِييل إِلَى صَانِعِ سُيُوفٍ حَتَّى تُعَلِّمَهُ هَذِهِ الحِرْفَةَ أَمَّا هِيَ وَبَعْدَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ اشْتَرَتْ بَقَرَةً وَلَمْ تَعُدْ تَعْمَلُ فَالْبَقَرَةُ تُؤَمِّنُ احْتِيَاجَاتِهِمْ، أَمَّا وَلَدَاهَا الصَّغِيرَانِ أَرِيُوس وَجِيكُوب فَقَدْ عَلَّمَتْهُمَا الزِّرَاعَةَ فِي أَرْضِ وَالِدِهِمْ وَبَدَأَتْ أَعْمَالُهُمْ تَزْدَهِرُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ وَأَصْبَحُوا فِي رَخَاءٍ مَادِيٍ.
مَضَتِ الأَيَّامُ مُسْرِعَةً وَبَقِيَ شَهْرٌ وَاحِدٌ عَلَى انْقِضَاءِ الفَتْرَةِ الَّتِي حُكِمَ بِهَا مِيخَائِيلُ، هَذِهِ الأَيَّامُ كَانَتْ تَعُدُّهَا زَوْجَتُهُ يَوْماً بِيَوْمٍ وَسَاعَةً بِسَاعَةٍ فَبَدَأَتْ تُجَهِّزُ أَوْلَادَهَا وَمَنْزِلَهَا لِاسْتِقْبَالِهِ وَجَدَّدَتْ أَثَاثَ مَنْزِلِهَا وَاشْتَرَتْ مَلَابِسَ جَدِيدَةً لِلْجَمِيعِ. مَضَى الشَّهْرُ كَأَنَّهُ وَمْضَةُ عَيْنٍ وَجَاءَ اليَوْمُ المَنْشُودُ وَجَاءَ السَّجَّانُ يَصِيحُ: "مِيخَائِيلُ اخْرُجْ لَقَدْ قَضَيْتَ حُكْمَكَ"، لَمْلَمَ الرَّجُلُ أَغْرَاضَهُ بِدُونِ أَيِّ رَدَّةِ فِعْلٍ وَكَأَنَّهُ أَمْرٌ عَادِيٌ فَالدَّيْنُ الَّذِي يَنْوِيهِ فِي قَلْبِهِ لَمْ يَجْعَلْهُ يَتَأَثَّرُ كَثِيراً بِهَذَا الخَبَرِ.

لَقَدِ انْقَضَتْ عِشْرُونَ عَاماً مِنَ الظُّلْمِ وَالقَهْرِ وَالبُعْدِ وَالحِرْمَانِ، وَبَعْدَ أَنْ خَطَتْ قَدَمَاهُ أَوَّلَ خَطْوَةٍ خَارِجَ أَسْوَارِ السِّجْنِ اتَّجَهَ جَنُوباً وَأَقْسَمَ أَنْ يَأْخُذَ بِالثَّأْرِ مِنْ تِلْكَ المَرْأَةِ وَأَنْ يُزِيلَ هَذِهِ الدَّوْلَةَ الفَاسِدَةَ مِنْ جُذُورِهَا فَقَدْ حَكَمَتْ عَلَيْهِ وَعَلَى الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ ظُلْماً، كَيْفَ يُسْجَنُ بَرِيءٌ وَكَيْفَ يُعْدَمُ رَجُلٌ لِأَنَّهُ اعْتَنَقَ دِيناً غَيْرَ دِينِهِمْ. مَضَى بِطَرِيقِهِ إِلَى بَيْتِهِ وَزَوْجَتِهِ وَأَطْفَالِهِ، وَقَفَ عَلَى الطَّرِيقِ فَتَوَقَّفَتْ بِقُرْبِهِ عَرَبَةٌ تَجُرُّهَا خُيُولٌ كَانَ يَقُودُهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ مَعَالِمُ الوَقَارِ، أَخَذَ مِيخَائِيلَ مَعَهُ وَأَثْنَاءَ الطَّرِيقِ تَبَادَلَا الحَدِيثَ وَقَصَّ قِصَّتَهُ عَلَى صَاحِبِ العَرَبَةِ الَّذِي أَبْدَى الكَثِيرَ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالِاسْتِغْرَابِ، وَاشْتَمَلَ الحَدِيثُ عَلَى الجُوعِ وَالقَهْرِ الَّذِي يَمُرُّ عَلَى الشَّعْبِ مِنَ الحُكُومَةِ وَكَثْرَةِ المُخْبِرِينَ وَالقُوَّةِ المُفْرِطَةِ الَّتِي يَفْرِضُونَهَا عَلَى الشَّعْبِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ ثَوْرَةً عَلَى الأَبْوَابِ سَوْفَ تَنْطَلِقُ مِنَ الجِبَالِ وَيُقَالُ بِأَنَّ هَذِهِ الثَّوْرَةَ يَقُودُهَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الدِّينِ الجَدِيدِ، عِنْدَهَا شَخَصَ بَصَرُ مِيخَائِيلَ وَقَالَ لَهُ: أَيُّ دِينٍ! هَلْ هُمْ كُثُرٌ أَرْجُوكَ أَخْبِرْنِي، تَبَسَّمَ صَاحِبُ العَرَبَةِ وَقَالَ: يُقَالُ لَهُ دِينُ الإِسْلَامِ وَقَدْ بَدَأَ هَذَا الدِّينُ يَنْتَشِرُ بِسُرْعَةٍ، وَلَا أُخْفِيكَ أَنَا مِنْ أَتْبَاعِهِ فَالمَسِيحِيَّةُ الحَقِيقِيَّةُ قَدْ حَرَّفَتْهَا الكَنَائِسُ المَزْعُومَةُ، فَبَعْدَ مَوْتِ أَرِيُوس الحَكِيمِ آخِرِ رَجُلٍ فِي المَسِيحِيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ بَدَأَ التَّحْرِيفُ فِي المَسِيحِيَّةِ وَأَنْزَلُوا عَلَيْهَا الثَّالُوثَ، وَالمَسِيحِيَّةُ الحَقِيقِيَّةُ لَا تَدِينُ بِهِ وَلَا تَخْتَلِفُ عَنِ الإِسْلَامِ وَتَدِينُ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ اللهُ. إِنَّمَا الثَّالُوثُ جَاءَ مِنَ الدِّيَانَاتِ المُخْتَلِفَةِ الوَثَنِيَّةِ عِنْدَ المِصْرِيِّينَ القُدَمَاءِ وَالهُنُودِ، وَكُلُّ هَذَا الكُرْهِ وَالحِقْدِ عَلَى أَتْبَاعِ الدِّينِ الجَدِيدِ لِأَنَّهُ سَوْفَ يُزِيلُ ظُلْمَ الأَسَاقِفَةِ وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ ثَرْوَاتِهِمْ وَكُنُوزِهِمُ الَّتِي يَجْمَعُونَهَا مِنْ رِقَابِ الشَّعْبِ. أَيْقَنَ مِيخَائِيلُ مِنْ صِدْقِ الرَّجُلِ فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِ إِسْلَامِهِ هُوَ أَيْضاً وَحَدَّثَهُ عَنْ قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ مَسْجُوناً مَعَهُ وَأُعْدِمَ، فَقَالَ صَاحِبُ العَرَبَةِ: إِنَّهُ مَعْرُوفٌ لَدَى كُلِّ مُسْلِمٍ بِهَذَا البَلَدِ، إِنَّهُ التَّاجِرُ عُمَرُ، وَهُوَ الَّذِي نَشَرَ هَذَا الدِّينَ، فَهُوَ قَدْ ذَهَبَ بِتِجَارَةٍ إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ وَرَأَى مِنْهُمُ الخَيْرَ وَالعَدْلَ وَالعِلْمَ وَالمَحَبَّةَ مَا لَمْ يَرَهُ هُنَا، فَحَاوَلَ نَشْرَ الإِسْلَامِ فَخَسِرَ كُلَّ تِجَارَتِهِ ثُمَّ خَسِرَ حَيَاتَهُ، وَلَكِنَّهُ زَرَعَ الإِسْلَامَ وَلَنْ يَذْهَبَ مِنْ قُلُوبِنَا أَبَداً، وَرَغْمَ

مَوْتِهِ وَمُلَاحَقَةِ الكَنِيسَةِ كُلَّ مَنْ يَدِينُ بِهَذَا الدِّينِ فَنَحْنُ سَوْفَ نَنْتَصِرُ وَنَنْشُرُ السَّلَامَ بِهَذِهِ الأَرْضِ.

كَلِمَاتُ هَذَا الرَّجُلِ حُفِرَتْ بِعَقْلِ مِيخَائِيلَ وَكَادَ أَنْ يَنْسَى إِلَى أَيْنَ هُوَ ذَاهِبٌ كَمَا أَنْسَتْهُ سِجْنَهُ كُلَّهُ، فَالسُّرُورُ الَّذِي زُرِعَ بِقَلْبِهِ لَحْظَتَهَا يُعَادِلُ القَهْرَ الَّذِي عَاشَهُ فِي سِجْنِهِ، كَيْفَ لَا وَقَدْ رُتِّبَ لَهُ هَذَا حَتَّى يَنَالَ دَرَجَةَ الإِسْلَامِ وَقُدِّرَ لَهُ أَنْ يَرَاهُ مُنْتَشِراً بِكُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ الَّتِي عَاشَ بِهَا. شَارَفَ الطَّرِيقُ عَلَى الِانْتِهَاءِ، وَالرَّجُلُ كُلُّهُ شَوْقٌ لِزَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ، هَذَا الشَّوْقُ امْتَزَجَ بِفَرَحٍ كَبِيرٍ ارْتَسَمَ عَلَى إِشْرَاقَةِ وَجْهِهِ فَضَاعَ بَيْنَ هَذِهِ الأَحَاسِيسِ وَالمَشَاعِرِ وَغَرِقَ بِهَا حَتَّى أَيْقَظَهُ صَوْتُ صَاحِبِ العَرَبَةِ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ قَرْيَتَكَ؟ قَالَ: بَلَى إِنَّهَا هِيَ، إِنَّهَا الحَبِيبَةُ وَالمَعْشُوقَةُ. وَضَعَ قَدَمَيْهِ عَلَى أَرْضِهَا فَارْتَعَشَ وَكَأَنَّهُ يَدُوسُ أَرْضاً مُقَدَّسَةً، نَزَلَ مِنَ العَرَبَةِ وَرَجَا لِصَاحِبِهَا نَهَاراً جَيِّداً، وَوَعَدَهُ بِأَنَّهُ سَوْفَ يَلْقَاهُ مُجَدَّداً وَسَوْفَ يَنْضَمُّ لِهَذِهِ الثَّوْرَةِ المُبَارَكَةِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْخَلِ بَيْتِهِ كَانَتْ صُوفِيَا وَاقِفَةً مَعَ أَوْلَادِهَا، وَعِنْدَمَا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ عَمَّ الصَّمْتُ حِينَهَا وَتَخَشَّبَ بِمَكَانِهِ وَلَمْ تَعُدْ قَدَمَاهُ تَحْمِلَانِهِ حَتَّى خَرَّ جَاثِياً، فَانْفَجَرَتِ الدُّمُوعُ لِرُؤْيَتِهِ عَائِلَتَهُ، فَهَرْوَلَتْ زَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُهُ وَعَانَقُوهُ عِنَاقاً كَأَنَّهُ عِنَاقُ الأَضْلُعِ لِلْقَلْبِ، وَبَدَأَ يُقَبِّلُ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ وَيَحْتَضِنُهُمْ وَيَشَمُّ رَائِحَتَهُمْ إِلَى أَنْ أَمْسَكَتْ زَوْجَتُهُ بِيَدِهِ وَأَعَانَتْهُ عَلَى النُّهُوضِ وَالذَّهَابِ إِلَى المَنْزِلِ الَّذِي كَانَ مُزَيَّناً بِشَكْلٍ لَائِقٍ. إِنَّهَا هِيَ رَائِحَةُ البَيْتِ الَّذِي عَاشَ بِهِ، رَائِحَةُ اليَاسَمِينِ الَّذِي تَعَرَّشَ عَلَى البَابِ، وَمِنْ مَكَانٍ آخَرَ فَاحَتْ رَائِحَةُ الطَّعَامِ الَّذِي يَعْشَقُهُ، الطَّعَامُ الَّذِي مُزِجَ بِالحُبِّ وَالشَّوْقِ، أَمَّا غُرْفَةُ وَالِدِهِ فَكَأَنَّ الزَّمَنَ تَوَقَّفَ عَلَى عَتَبَاتِهَا صَمَّاءَ بَكْمَاءَ، وَلَكِنْ يُسْمَعُ مِنْهَا صَوْتُ الأَمَلِ الَّذِي غَرَسَهُ القَدَرُ بِنَفْسِهِ وَرَبَّاهُ حَتَّى يَغْدُو أَكْثَرَ قُوَّةً وَتَتَفَتَّقَ بَرَاعِمُ الثَّوْرَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَالقَهْرِ الَّذِي يَعِيشُهُ النَّاسُ بِهَذِهِ الأَرْضِ.

خَلَعَ ثِيَابَهُ المُمَزَّقَةَ وَحِذَاءَهُ المُهْتَرِئَ وَوَضَعَتْهَا صُوفِيَا بِكِيسٍ لِتُحْرِقَهَا وَتُزِيلَ كُلَّ أَثَرٍ لِلْحُزْنِ الَّذِي عَاشَتْهُ وَمَرَّ عَلَيْهَا. اغْتَسَلَ وَأَزَالَ عَنْهُ كُلَّ آثَارِ السِّجْنِ وَتَطَيَّبَ وَلَبِسَ ثِيَاباً جَدِيدَةً كَانَتْ قَدْ خَاطَتْهَا لَهُ زَوْجَتُهُ

بِنَفْسِهَا، وَجَلَسَ الجَمِيعُ حَوْلَ المَائِدَةِ المُكَوَّنَةِ مِنْ لَحْمِ السَّمَكِ وَلَحْمِ الضَّأْنِ الَّذِي يَعْشَقُهُ، وَبَدَأَ الجَمِيعُ بِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَهُوَ يُحَدِّثُهُمْ عَنِ الَّذِي مَرَّ عَلَيْهِ بِالسِّجْنِ وَقِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي حُكِمَ عَلَيْهِ بِالإِعْدَامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِ إِسْلَامِهِ، تَفَاجَأَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ هَذَا الأَمْرِ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُتَيَقِّنَةً أَنَّ زَوْجَهَا لَا يُقْدِمُ عَلَى أَمْرٍ كَهَذَا مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفَ بِأَنَّهُ صَائِبٌ.

جَاءَ المَسَاءُ وَجَلَسَ الجَمِيعُ حَوْلَ طَاوِلَةٍ بِالفِنَاءِ الخَلْفِيِّ أَمَامَ الجِدَارِ الأَثَرِيِّ وَبَدَأَ مِيخَائِيلُ يُحَدِّثُهُمْ عَنِ الإِسْلَامِ وَسَمَاحَتِهِ وَعَنْ قَوَاعِدِهِ وَمَدَى التَّسَامُحِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ مَسِيحِيَّتَهُمْ إِنَّمَا هِيَ مُمَزَّقَةٌ وَتَسْرِي عَلَى أَهْوَاءِ القَسَاوِسَةِ وَالبَابَاوَاتِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مُحَرَّفَةً وَبَاطِلَةً لَمَا جَاءَ الإِسْلَامُ، فَاقْتَنَعَ الجَمِيعُ بِمَا حَدَّثَهُمْ بِهِ وَأَمَرَهُمْ بِالاغْتِسَالِ وَنُطْقِ الشَّهَادَةِ، وَعِنْدَمَا فَعَلَ الجَمِيعُ بِمَا حَدَّثَهُمْ بِهِ أَحَسَّتْ صُوفِيَا بِرَاحَةٍ لَمْ تُحِسَّ بِهَا مِنْ قَبْلُ. عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ذَهَبَ الأَوْلَادُ إِلَى النَّوْمِ وَبَقِيَ الزَّوْجَانِ وَحْدَهُمَا، فَقَالَتْ صُوفِيَا: يَا زَوْجِي لَقَدْ أَرَادَ اللهُ لَنَا بِحَبْسِكَ خَيْراً، فَلَوْ كُنْتَ حُرّاً لَمَا نِلْنَا الَّذِي نِلْنَاهُ، فَقَالَ: وَمَا الَّذِي نِلْنَاهُ؟ رَدَّتْ عَلَيْهِ: نِلْنَا الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، أَتَرَى ذَلِكَ الجِدَارَ الَّذِي أَمَامَكَ؟ دُنْيَانَا تَحْتَهُ وَاليَوْمَ نِلْنَا آخِرَتَنَا، وَتَحْتَهُ جَرَّةٌ مِنَ الذَّهَبِ عَثَرْتُ عَلَيْهَا مِنْ وَرَاءِ ذَكَرِ أَرْنَبٍ نَفَقَ بِجُحْرِهِ، وَعِنْدَمَا أَتَيْتُ أَسْتَخْرِجُهُ وَجَدْتُهَا وَأَخَذْتُ القَلِيلَ مِنْهَا وَاسْتَعَنْتُ بِهِ عَلَى حَيَاتِنَا وَخَبَّأْتُ البَاقِيَ مَخَافَةَ اللُّصُوصِ. صُعِقَ زَوْجُهَا مِنْ هَذَا الأَمْرِ فَسَجَدَ للهِ شَاكِراً وَنَاجَى رَبَّهُ وَقَالَ: رَبِّي أَنْتَ تَعْلَمُ الخَيْرَ وَأَنَا لَا أَعْلَمُهُ، وَالحَمْدُ لَكَ عَلَى الَّذِي وَهَبْتَنَا إِيَّاهُ.

بَعْدَ مَجِئه بِأُسْبُوعٍ إِلَى البَيْتِ تَذَكَّرَ وَصِيَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ مَسْجُوناً مَعَهُ، وَهِيَ نُسْخَةٌ مِنَ القُرْآنِ مُخَبَّأَةٌ فِي الجَبَلِ، فَقَرَّرَ الذَّهَابَ إِلَى ذَاكَ المَكَانِ، وَبِالْفِعْلِ جَهَّزَ نَفْسَهُ وَذَهَبَ إِلَى غَايَتِهِ. كَانَ جَبَلاً قَدْ أَلِفَهُ وَعَرَفَهُ وَلَمْ يَجِدْ صُعُوبَةً بِمَعْرِفَةِ الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ لِلْمَغَارَةِ، وَبِمُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ صَادَفَ مَجْمُوعَةً مِنَ الرِّجَالِ فَأَحَاطُوا بِهِ وَسَأَلُوهُ عَنْ وِجْهَتِهِ، حَاوَلَ التَّمَلُّصَ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا كُشِفَ أَمْرُهُ فَمَصِيرُهُ القَتْلُ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ قَدْ أَضَاعَ مِعْزَاةً وَهُوَ يَبْحَثُ عَنْهَا، وَلَكِنَّ هَذِهِ

الكِذْبَةَ لَمْ تَنْطَلِ عَلَيْهِمْ فَقَبَضُوا عَلَيْهِ وَأَوْثَقُوا ذِرَاعَيْهِ وَاقْتَادُوهُ إِلَى المَغَارَةِ نَفْسِهَا الَّتِي كَانَ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا. وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ، كَانَتْ تِلْكَ المَغَارَةُ مَقَرَّ الثُّوَّارِ وَكَانَ مِنْ بَيْنَ الحَاضِرِينَ صَاحِبُ العَرَبَةِ، وَعِنْدَمَا شَاهَدَهُ ظَنَّ بِأَنَّهُ جَاسُوسٌ قَدْ تَنَكَّرَ بِزِيِّ خَارِجِ السِّجْنِ، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ حُضُورِهِ إِلَى هَذَا المَكَانِ فَأَخْبَرَهُ بِالقِصَّةِ الحَقِيقِيَّةِ، فَعَلِمَ الرَّجُلُ عِنْدَهَا مَدَى صِدْقِهِ، وَكَانَتِ النُّسْخَةُ مَوْضُوعَةً بِصَدْرِ المَغَارَةِ فَذَهَبَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهِ، وَجَلَسَ الجَمِيعُ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أُمُورِ الثَّوْرَةِ.

وَبَعْدَ عِدَّةِ لَحَظَاتٍ دَخَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ لَبِسَ السَّوَادَ عَلَى جِسْمِهِ وَابْيَضَّتْ لِحْيَتُهُ فَوَقَفَ الجَمِيعُ احْتِرَاماً لَهُ، وَعِنْدَمَا نَظَرَ مِيخَائِيلُ لِوَجْهِهِ كَانَتْ مُفَاجَأَةً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، إِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي نَصَحَهُ بِعَدَمِ دَفْنِ وَالِدِهِ بِمَقَابِرِ المَسِيحِيِّينَ، إِنَّهُ آرِياس قَائِدُ الثَّوْرَةِ الَّذِي عَرَفَهُ مِنَ النَّظْرَةِ الأُولَى، فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَضَمَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَحَمِدَ اللهَ أَنَّهُ أَنْجَاهُ مِنَ السِّجْنِ، ثُمَّ جَلَسَ الجَمِيعُ وَبَدَأَ آرِياس يُعَرِّفُهُمْ بِهِ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ ابْنُ رَجُلٍ قَلَّمَا وُجِدَ مِثْلُهُ، لَقَدْ كَانَ وَالِدُهُ مُوَحِّداً مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِإِسْلَامِهِ أَحَدٌ، لَقَدْ كَانَ أَخاً لِي وَأَنَا وَإِيَّاهُ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَ التَّاجِرَ عُمَرَ وَقَدْ أَقْسَمْنَا مَعاً عَلَى الثَّوْرَةِ ضِدَّ الكَنِيسَةِ الفَاسِدَةِ وَضِدَّ مَنْ يَحْكُمُ هَذِهِ البِلَادَ، وَلَكِنَّ المَوْتَ غَيَّبَهُ عَنَّا وَالرَّحْمَةُ عَلَيْهِ لَكِنَّ اللهَ عَوَّضَنَا بِابْنِهِ الَّذِي قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَرَى التَّاجِرَ عُمَرَ وَيَتَتَلْمَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَقَدْ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ كَمَا يُسَاقُ الغَيْمُ لِيَسْقِيَ الزَّرْعَ، هَنِيئاً لَكَ يَا وَلَدِي.

ثُمَّ تَابَعَ: مَا قِصَّةُ سِجْنِكَ كُلَّ هَذِهِ الفَتْرَةِ؟ فَأَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ عَنِ المَرْأَةِ الَّتِي قَتَلَتْ أَخَاهَا مَعَ الرَّجُلِ الَّذِي أَحَبَّتْهُ وَمُنِعَتْ مِنَ الزَّوَاجِ مِنْهُ وَمِنْ ثَمَّ أُلْقِتِ التُّهْمَةَ عَلَيْهِ، وَوَصَفَ لَهُمْ شَكْلَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ. تَكَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنَ الحُضُورِ بِأَنَّهُ يَعْرِفُهُمْ وَهُمْ الآنَ مِنْ أَكْثَرِ الأُنَاسِ عَدَاوَةً وَكُرْهاً لَنَا، إِنَّهُمْ يَتَتَبَّعُونَ خُطُوَاتِنَا وَيُحَاوِلُونَ قَتْلَ كُلِّ شَخْصٍ انْتَمَى لِهَذِهِ الثَّوْرَةِ المُبَارَكَةِ، وَيَجِبُ التَّخَلُّصُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ نَحْتَاجُ لِرِجَالٍ أَشِدَّاءَ وَسِلَاحٍ جَيِّدٍ حَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِمْ وَيَنْقُصُنَا المَالُ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ. سَكَتَ الجَمِيعُ عِنْدَهَا فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ أَيَّ شَيْءٍ، لَكِنَّ مِيخَائِيلَ دَارَ

بِخَلْدِهِ قِصَّةُ الكَنْزِ المَدْفُونِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْهُمْ بِهِ لِأَنَّهُ عَلِمَ بِأَنَّ ابْنَهُ وَزَوْجَتَهُ هُمَا مَنْ عَثَرَا عَلَى الكَنْزِ وَلَيْسَ لَهُ حُرِّيَّةُ التَّصَرُّفِ بِهِ.

انْتَهَى الِاجْتِمَاعُ وَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ وَجَلَسَ مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ وَبَدَأَ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ كَرَمِ رِجَالِ الإِسْلَامِ الأَوَائِلِ وَكَيْفَ بَذَلُوا الأَنْفُسَ وَالأَمْوَالَ لِنُصْرَةِ دِينِهِمْ، وَحَدَّثَهُمْ عَنْ قِصَّةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ كَيْفَ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ وَكَيْفَ نَذَرَ كُلَّ مَالِهِ لِخِدْمَةِ هَذَا الدِّينِ، ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ اللَّذَيْنِ كَانَا سَبَبَ حَبْسِهِ وَأَنَّهُمْ الآنَ مِنْ أَكْبَرِ مُعَارِضِي الثَّوْرَةِ وَيَجِبُ التَّخَلُّصُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّ الثُّوَّارَ يَحْتَاجُونَ إِلَى مُتَطَوِّعِينَ وَأَمْوَالٍ لِلقِيَامِ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ. وَقَفَ دَانِيبِل وَأَخْبَرَ وَالِدَهُ بِقِصَّةِ الخَبِيئَةِ الَّتِي وَجَدَهَا وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِلتَّبَرُّعِ بِهَا كَامِلَةً فِدَاءً وَنُصْرَةً لِهَذَا الدِّينِ اقْتِدَاءً بِعُثْمَانَ، فَذَهَبَ وَأَخْرَجَ جَرَّةَ الذَّهَبِ وَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ وَالِدِهِ.

فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي ذَهَبَ مِيخَائِيلُ مَعَ وَلَدِهِ إِلَى المَغَارَةِ حَيْثُ قَادَاتُ الثَّوْرَةِ فَوَضَعَ الذَّهَبَ بَيْنَ يَدَيْ آرِياس وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ وَلَدَهُ قَدْ عَثَرَ عَلَيْهِ وَهُوَ قَرَّرَ التَّبَرُّعَ بِهِ، كَبَّرَ مَنْ كَانَ بِالمَغَارَةِ وَقَالُوا بِأَنَّ دَانِيبِل هُوَ عُثْمَانُ الثَّوْرَةِ وَمِنْ حِينِهَا لَمْ يُعْرَفْ دَانِيبِل إِلَّا بِاسْمِ عُثْمَانَ وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ مِنْ يَوْمِهَا. بَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ اشْتَرَى الثُّوَّارُ السِّلَاحَ اللَّازِمَ لِلْمُهِمَّةِ وَتَطَوَّعَ مِيخَائِيلُ وَوَلَدُهُ وَصَاحِبُ العَرَبَةِ لِلْمُهِمَّةِ مَعَ عِدَّةِ رِجَالٍ أَشِدَّاءَ، وَفِي اليَوْمِ التَّالِي ذَهَبَ الجَمِيعُ لِتَنْفِيذِ المُهِمَّةِ وَاشْتَبَكَ الطَّرَفَانِ وَكَانَتْ مُوَاجَهَةً عَنِيفَةً وَلَكِنَّهُمْ تَمَكَّنُوا مِنْ قَتْلِ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ وَكُلِّ شَخْصٍ يَحْرُسُهُمَا وَأُغْلِقَتْ صَفْحَتُهَا لِلْأَبَدِ وَعَادَ الجَمِيعُ إِلَى المَغَارَةِ سَالِماً مَعَ النَّصْرِ الَّذِي انْتَشَوْا بِهِ. لَقَدْ كَانَ أَوَّلَ نَصْرٍ بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ المُبَارَكَةِ وَكَانَ لَهُ وَقْعٌ كَبِيرٌ عَلَيْهَا بِالإِضَافَةِ لِلْأَمْوَالِ الكَثِيرَةِ الَّتِي حَصَلُوا عَلَيْهَا مِنْهُمْ فَاشْتَرَوْا بِهَا السِّلَاحَ وَالثَّوْرَةُ تَنْمُو وَتَكْبُرُ وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَأْتُونَ أَفْوَاجاً يَنْضَمُّونَ لَهَا وَيُعْلِنُونَ إِسْلَامَهُمْ وَكَانَ الفَضْلُ بِهَذَا الأَمْرِ لِأَوْلَادِ مِيخَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى القُرَى وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الثَّوْرَةِ.

كَبُرَتِ الثَّوْرَةُ وَأَصْبَحَ الثُّوَّارُ يُهَاجِمُونَ مُقَرَّاتِ الجَيْشِ الَّذِي جَمَعَهُ مَلِكُ الدَّوْلَةِ مَارْكُوس وَتَحَوَّلَتِ الأُمُورُ مِنَ الدِّفَاعِ إِلَى الهُجُومِ وَأَغَارُوا عَلَى كُلِّ سِجْنٍ وَأَخْرَجُوا مَنْ بِهِ مِنْ أَتْبَاعِ الثَّوْرَةِ. جَمَعَ مَارْكُوس كُلَّ جُنْدِيٍ لَدَيْهِ حَتَّى أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِالدُّوَلِ المُجَاوِرَةِ لِلْقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الثَّوْرَةِ، وَبِالمُقَابِلِ كَانَ الثُّوَّارُ يُعِدُّونَ العُدَّةَ وَيَجْمَعُونَ كُلَّ مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ تَحْضِيراً لِلْمَعْرَكَةِ المُرْتَقَبَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَارْكُوس فَهِيَ مَعْرَكَةُ نَكُونُ أَوْ لَا نَكُونُ، وَعُيِّنَ دَانِييل قَائِداً لِلْجَيْشِ الَّذِي تَشَكَّلَ. كَانَ جَيْشُ مَارْكُوس أَكْبَرَ عَدَداً وَأَكْثَرَ تَجْهِيزاً وَالجُنُودُ مُدَرَّعُونَ بِالحَدِيدِ، أَمَّا جَيْشُ الثَّوْرَةِ فَكَانَ مُعْظَمُهُ مِنَ الفَلَّاحِينَ عَدِيمِي الخِبْرَةِ بِالسِّلَاحِ وَلَيْسَ لَهُمُ التَّجْهِيزُ الكَافِي وَهَذَا الأَمْرُ كَانَ مُقْلِقاً بِالنسبَةِ لِدَانِييل، فَطَلَبَ اجْتِمَاعاً يَضُمُّ كُلَّ رَجُلٍ قَادِرٍ عَلَى إِعْطَاءِ خُطَّةٍ لِهَذِهِ المَعْرَكَةِ. بَدَأَتِ المُشَاوَرَاتُ حَوْلَ المَعْرَكَةِ وَكُلُّ طَرَفٍ يُدْلِي بِخُطَّتِهِ وَلَكِنَّ جَمِيعَ الخُطَطِ كَانَتْ تُفْضِي إِلَى الهَزِيمَةِ إِلَى أَنِ اقْتَرَحَ آرِياس خُطَّةً تُفْضِي إِلَى النَّصْرِ وَلَكِنَّهَا تَحْتَاجُ لِمَجْمُوعَةٍ فِدَائِيَّةٍ تُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَلَا تُرِيدُ الحَيَاةَ، وَطُرِحَتْ عَلَى الحُضُورِ فَوَافَقَ الجَمِيعُ عَلَى هَذِهِ الخُطَّةِ، وَكَانَتْ تَقْضِي بِجَمْعِ ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ وَخَلْفَهُمْ ثَلَاثِمِائَةِ وَأَنْ يَسْتَدْرِجُوا جَيْشَ الأَعْدَاءِ إِلَى أَرْضٍ وَمِنْ وَرَائِهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ التِّلَالِ شَدِيدَةِ الِانْحِدَارِ وَلَا يُوجَدُ بَيْنَهَا سِوَى مَمَرٍّ ضَيِّقٍ، أَمَّا المَرْحَلَةُ الأُولَى فَكَانَتْ مُوَاجَهَةَ المُقَدِّمَةِ بِكُلِّ بَسَالَةٍ وَهَرَبَ المُؤَخِّرَةِ مِنْ ثَمَّ فِرَارَ المُقَدِّمَةِ، عِنْدَهَا سَوْفَ يَقُومُ جَيْشُ مَارْكُوس بِمُلَاحَقَةِ المُنْسَحِبِينَ إِلَى المِنْطَقَةِ المُحَاطَةِ بِالتِّلَالِ. أَمَّا المَرْحَلَةُ التَّالِيَةُ فَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَنِ انْضَمَّ لِهَذِهِ الثَّوْرَةِ يَكُونُ مُتَوَاجِداً عَلَى قِمَمِ التِّلَالِ مُجَهَّزاً كُرَاتٍ ضَخْمَةً مِنَ القَشِّ المُشْبَعِ بِالزَّيْتِ وَأَكْوَاماً كَبِيرَةً مِنَ الحِجَارَةِ. أَمَّا المَرْحَلَةُ التَّالِيَةُ فَهِيَ بَقَاءُ المَجْمُوعَةِ الفِدَائِيَّةِ حَتَّى قُدُومِ الجَيْشِ وَمُحَاصَرَتِهِ وَمِنْ ثَمَّ الِانْسِحَابِ إِنْ أَمْكَنَ، وَأَضَافَ دَانِييل إِلَى الخُطَّةِ أَنَّ المُؤَخِّرَةَ المُنْسَحِبَةَ تَكُونُ مِنْ رُمَاةِ السِّهَامِ الَّذِينَ سَوْفَ يَصْعَدُونَ عَلَى مُقَدِّمَةِ التِّلَالِ مِنَ الجِهَةِ المَفْتُوحَةِ حَيْثُ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَقْتُلُونَ كُلَّ جُنْدِيٍ يُحَاوِلُ الِانْسِحَابَ أَوِ الهَرَبَ مِنَ الحِجَارَةِ وَكُرَاتِ النَّارِ. سَأَلَ أَحَدُهُمْ: كَيْفَ لَنَا أَنْ نُحَدِّدَ زَمَانَ وَمَكَانَ المَعْرَكَةِ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَنَا؟ فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَذْهَبَ رَجُلٌ وَيُخْبِرَهُمْ

بِمَكَانِهِمْ فَعِنْدَهَا سَوْفَ يَأْتِي مَارْكُوس بِجَيْشِهِ إِلَى المَكَانِ المُحَدَّدِ، وَتَطَوَّعَ بِهَذَا الأَمْرِ رَجُلٌ انْضَمَّ حَدِيثاً وَيَعْمَلُ بِالقَصْرِ وَلَكِنْ لَا أَحَدَ يَعْلَمُ بِأَمْرِهِ.

بَدَأَ التَّجْهِيزُ لِلْمَعْرَكَةِ وَكَانَ عَلَى رَأْسِ المُقَدِّمَةِ دَانِييل وَعَلَى رَأْسِ المُؤَخِّرَةِ أَبُوهُ، وَبَدَأَ الجَمِيعُ بِتَجْهِيزِ الحِجَارَةِ وَكُرَاتِ القَشِّ، ثُمَّ اشْتَرَكَ الكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ النِّسَاءُ وَالفَتَيَاتُ وَحَتَّى الصِّغَارُ إِلَى أَنْ تَمَّ تَجْمِيعُ كُلِّ المَوَادِّ اللَّازِمَةِ لِلْمَعْرَكَةِ. أَمَّا صُوفِيَا فَقَدْ عَمِلَتْ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النِّسْوَةِ عَلَى صُنْعِ كُلِّ الدُّرُوعِ اللَّازِمَةِ لِلْفِرْقَةِ الفِدَائِيَّةِ، وَقَامَتْ زَوْجَةُ آرِياس بِبَيْعِ كُلِّ مَا تَمْلِكُ مِن مُجَوْهَرَاتٍ وَقَدَّمَتْهُ لِشِرَاءِ السِّلَاحِ، لَمْ تَدَّخِرِ النِّسَاءُ أَيَّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ النَّصْرِ حَتَّى أَنَّ الصِّبْيَةَ بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطَعِ نَقْدِيَّةٍ صَغِيرَةٍ قَدْ تَبَرَّعُوا بِهَا. نَظَرَ آرِياس لِهَذِهِ المَوَاقِفِ فَخَرَّ سَاجِداً للهِ وَحَمِدَهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، نِعْمَةِ الإِسْلَامِ الَّذِي جَعَلَ مِنْهُمْ جَسَداً وَاحِداً وَأُمَّةً وَاحِدَةً.

مَضَى أُسْبُوعٌ عَلَى التَّجْهِيزِ وَقَامَ المُتَطَوِّعُ بِدَوْرِهِ فَجَهَّزَ مَارْكُوس جَيْشَهُ وَاتَّجَهَ نَحْوَ تِلْكَ الأَرْضِ، أَشْرَقَتْ شَمْسُ اليَوْمِ المَوْعُودِ وَلَاحَ مِنْ بَعِيدٍ غُبَارٌ مُرْتَفِعٌ، إِنَّهُ غُبَارُ أَقْدَامِ الخُيُولِ مِنْ جَيْشِ مَارْكُوس، فَصَاحَ آرِياس: الجِهَادَ الجِهَادَ يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي. نَظَرَتْ صُوفِيَا إِلَى زَوْجِهَا وَابْنِهَا نَظْرَةَ المُوَدِّعِ فَعَانَقَتْهُمَا وَلَمْ تَنْطِقْ وَذَهَبَتْ مَعَ بَقِيَّةِ أَوْلَادِهَا إِلَى أَعْلَى التِّلَالِ مُنْتَظِرَةً مُتَرَقِّبَةً. رَكِبَ دَانِييل فَرَسَهُ وَتَقَدَّمَ المُقَدِّمَةَ ثُمَّ تَلَاهُ وَالِدُهُ عَلَى رَأْسِ المُؤَخِّرَةِ، وَبَعْدَ أَنْ ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ مِقْدَارَ رُمْحٍ التَقَى الجَيْشَانِ، فَنَظَرَ مَارْكُوس إِلَى عَدَدِ جَيْشِ دَانِييل فَسَخِرَ مِنْهُ ثُمَّ أَمَرَ جَيْشَهُ بِأَنْ يَهْجُمَ دَفْعَةً وَاحِدَةً، فَتَصَدَّتِ المُقَدِّمَةُ لِلْهُجُومِ أَمَّا المُؤَخِّرَةُ فَبَدَأَتْ تَنْسَحِبُ وَالمُقَدِّمَةُ تَمْنَعُ الجَيْشَ مِنَ اللَّحَاقِ بِهَا. عَلَا صَوْتُ مَارْكُوس بِالضَّحِكِ وَأَصَابَ الجُنُودَ الغُرُورُ، وَعِنْدَهَا أَمَرَ دَانِييل مَا بَقِيَ مِنْ مَجْمُوعَتِهِ بِالِانْسِحَابِ، وَبِالْفِعْلِ أَمَرَ مَارْكُوس الجَيْشَ كُلَّهُ بِاللَّحَاقِ بِهِمْ إِلَى أَنْ وَقَعَ كَامِلُ الجَيْشِ فِي الحِصَارِ، وَبَدَأَتِ النِّسَاءُ وَمَنْ تَبَقَّى مِنَ الجَيْشِ بِإِلْقَاءِ الحِجَارَةِ وَكُرَاتِ القَشِّ المُشْتَعِلَةِ، وَكَأَنَّ مَا يَحْدُثُ حِينَهَا الجَحِيمُ بِحَدِّ ذَاتِهِ، فَلَمْ يَعُدْ يُرَى جَيْشُ مَارْكُوس لِكَثْرَةِ الدُّخَانِ المُتَصَاعِدِ وَالنِّيرَانِ المُشْتَعِلَةِ، وَأَمَّا

المُؤَخِّرَةُ فَقَدْ تَوَلَّتْ أَمْرَ مَنْ حَاوَلَ الِانْسِحَابَ مِنْ جَيْشِ مَارْكُوس وَهُوَ كَانَ فِي مُؤَخِّرَةِ جَيْشِهِ، فَهَجَمَ عَلَيْهِ مِيخَائِيلُ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَعَلَّقَهُ عَلَى رُمْحِهِ.

انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ لَكِنَّ الدُّخَانَ كَانَ قَدْ غَطَّى أَرْضَ المَعْرَكَةِ. ظَهَرَ مِيخَائِيلُ وَمَجْمُوعَتُهُ مِنَ الرُّمَاةِ أَمَّا الفِرْقَةُ الفِدَائِيَّةُ فَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهَا أَحَدٌ. نَزَلَ الجَمِيعُ مِنْ فَوْقِ التِّلَالِ وَمِنْ بَيْنِهِمْ صُوفِيَا الَّتِي هَرْوَلَتْ مُسْرِعَةً نَحْوَ الأَرْضِ لَا يَهُمُّهَا لَهِيبُ النَّارِ وَلَا الدُّخَانُ المُشْتَعِلُ، فَهِيَ تَبْحَثُ عَنِ ابْنِهَا حَتَّى وَجَدَتْهُ مُمَدَّداً عَلَى الأَرْضِ وَقَدْ أُثْخِنَ بِالجِرَاحِ، سَحَبَتْهُ عَنْ أَرْضِ المَعْرَكَةِ وَبَدَأَتْ تُضَمِّدُ جِرَاحَهُ وَهِيَ تَبْكِي عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ أَجْفَانَهُ. حُمِلَ عَلَى الأَكْتَافِ إِلَى مَكَانٍ وَضُمِّدَتْ جِرَاحُهُ، انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ وَكَانَ نَصْراً كَبِيراً قَضَى عَلَى جَمِيعِ الأَعْدَاءِ، أَمَّا الفِرْقَةُ الفِدَائِيَّةُ فَقَدِ اسْتُشْهِدَتْ وَلَمْ يَتَبَقَّ أَحَدٌ سِوَى دَانِيِيل مَعَ بِضْعَةِ رِجَالٍ.

انْتَهَتْ حِقْبَةُ الظُّلْمِ وَبَدَأَتْ حِقْبَةُ العَدْلِ وَتَوَلَّى آرِياس الحُكْمَ عَلَى مَبَادِئِ الإِسْلَامِ، أَمَّا مِيخَائِيلُ فَقَدْ عَاشَ بَعْدَهَا لِيَرَى أَحْفَادَهُ وَهُمْ يَرْفَعُونَ رَايَةَ الحَقِّ، أَجَلْ إِنَّهُ قَدَرُ اللهِ الَّذِي يَضَعُ الخَيْرَ دَائِماً لِلْعَبْدِ، لَقَدْ كَانَتْ آخِرُ كَلِمَةٍ لِمِيخَائِيلَ: اللهُ يَرَى الخَيْرَ وَنَحْنُ لَا نَرَاهُ.

لِلكَاتِبِ إِبْرَاهِيم الصَّعْبِ